بالسَّلام وحده تزهو الجبال

على طريق سه ركه لو وبه ركه لو إلى أهل الحه قه

(١-٢)

ما زال الرَّبيع "الطَّلق" طاغياً على سفوح ووهاد أربيل، فنحن في أوائل نيسان (أبريل)، والسُّحب واعدة بالمطر، وأربيل 2012 غيرها العام 2007، فالبناء أرتفع والأحوال تغيرت، والوفود الأجنبية تملأ الفنادق، وهي علامة عُمران وتجارة، أما الظانون بالمنطقة وأهلها الظِّنون فيحسبون كلَّ أجنبي صهيونيا، هكذا سألني أحدهم بعد العودة من أربيل قائلاً: هل رأيت يهودا هناك؟! قلت: تقصد صهاينة؟! قال: نعم! قلتُ: الأجانب كثرٌ هناك، وأي بلد مِن بلاد العروبة فارغ منهم؟! فلماذا بأربيل والسليمانية وبالعراق عموماً يتحولون إلى جنس الصَّهاينة؟!

بل أنا في شوق لو رأيت يهودياً عراقياً من أهل عمادية أو شقلاوة أو عقرة الأوائل قد عاد وأقام. كذلك الحال ببغداد وبقية مدن العراق، فلو عادوا لقلنا عدنا إلى الزَّمن الجميل، ولتوقفت هجرة بقية أُمم العراق، فعودة اليهود تعني أن العراق يسير على الطَّريق الصَّحيح، ومِن حقهم ذلك وحقنا أن نعود ونتعايش مِن جديد، فمَن أجلاهم عَمِل على جلاء بقية أهل العراق الأصلاء!

رشيد الخيُّون

. كانت الزِّيارة مؤجلة عاماً بعد عام، لغرض يخص إكمال البحث في الأديان والمذاهب بالعراق، فأهل (الحه قة) لم يشملهم الكتاب، بطبعاته السَّابقة، وأنا أعده الآن ليصدر في ثلاثة أجزاء، فاغتنمت الفرصة، فلعلي أجد ضالتي. سألت عن الدُّكتور برهم صالح، قُبيل تسليمه رئاسة وزراء الإقليم بيوم واحد، وكنت أظن أنه خارج البلاد، فبعد لحظات قالوا: سيراك في المساء بداره، فوجدته ينتظرني على عتبة الدار، فقلت في نفسي علامة خير أنه لم تغيره نيابة رئاسة وزارة العراق ولا رئاسة وزارة الإقليم، وكنت لم أره منذ أعوام، لكنه يتصل بين حين وآخر سائلاً ومشجعاً

قال: أتحب أن تكون معي في زيارة مهرجان سه ركه لو يوم السبت، كي نتحدث في الطَّريق؟ قلت: أريد إتمام مهمتي مع أهل الحقه أولاً، إذا كان هناك طريق إلى قراهم، أو اللقاء بمشايخهم؟ قال: إذن تعال معي السبت، فبعد الاحتفال في قريتي سركه لو وبه ركلو، ستنجز ما تريد، وسأتصل بمَن يساعدك في ذلك. كان يوم السبت السابع مِن نيسان ٢٠١٢ ممطراً، وكان برهم صالح قد أنجز تسليم رئاسة الوزارة.

"سه ركه لو" و "به ركه لو"

(سه ركه لو) و (به ركه لو) قريتان تقعان في سلسلة الجبال ما بعد سد دوكان، الأولى معناها فوق الوادي، والثانية معناها تحت الوادي، أي الصعود والهبوط، فمَن سه ركه لو النُّزول إلى به ركه لو. منذ عشرين عاماً يُحتفل بأول جمعة من شهر نيسان، على اعتبار أن كهوف وممرات وصخور تلك المناطق حالت دون تقدم قوات الجيش، في الزمن السَّابق، وكانت الكهوف عصية حتى على الطائرات، فقيل لي: إن الضربة الكيماوية الأُولى كانت في هذه المنطقة.

عندما تطل على وديان سه ركه لو وبه ركه لو، يأخذك الذهول من حدة التَّضاريس وارتفاع قمة الجبل هوة قعر الوادي السحيقة. ترى كهوفاً على شكل غرفة محفورة، أتخذها المقتلون مقرات ومنازل، عاشت فيها العائلات والأفراد. كأنها محفورة بآلات حفر حديثة، وبإشراف مهندسين، لكنها عوامل التعرية، تحفر هنا كهفاً وتمده هناك ليكون مغارة. مناطق ما زالت بعيدة عن متناول يد الإنسان، وهي هكذا منذ آلاف السنين، تحتفظ بمنابع المياه وسيلانها في الغدران والجداول، وكم يعاني مَن يحاول زراعة مربع على سفح الجبل مِن صلابة التربة، ومع ذلك تجد على الطريق مَن وجد متراً أو مترين أيسر حراثة مما حولها مِن الصخور.

في سفح سركلو وبركلو أقام بهاء الله، مؤسس الدِّيانة البهائية، لمدة سنتين، وهنا تم اللقاء بشيوخ النَّقشبندية، ومنهم الشَّيخ أحمد سردار، الذي يُقال منه بدأ مذهب أهل الحقه، وهو مذهب نقشبندي التَّصوف. وكانت إقامة بهاء الله للعزلة أو الهروب مِن المطاردة في العهد العثماني.

كنت قرأت في حياته أنه اختفى لزمن في بيداء السليمانية، وكنت أحسب أنها نقرة السَّلمان في بادية السماوة، لا سفح الجبل. ترى الماء ينفط مِن الصخور ويسيل ليجتمع في جداول، علينا عبورها كي نصل إلى نقطة الاحتفال. عائلات وشباب يحتفلون في العراء، لا يتحقق ذلك إلا في فترات السلام، فمَن ينظر في تاريخ المنطقة القريب يُقدر هذه اللحظات حق التقدير. إنه بالسلام وحده تزهو وتغني الجبال وترقص الأشجار طرباً بالنسائم لا على أزيز الرَّصاص.

كان الوضع الأمني ممتازاً، تشعر بذلك مِن حرية رئيس وزراء الإقليم والوزراء، ونزوله إلى الوادي وسط جموع مِن الشَّباب، ولم تلحظ مشاهد مسلحة، مع أن الاحتفال تجاوز إلى المساء. في استضافة كريمة عند الشيخ محمد شيخ محمود سركه لوي، قضينا ذلك المساء، وكان الشَّيخ أحد عناصر البيشمركة، ويُقسم إقامته بين لندن والسليمانية، وبيته عبارة عن دار ضيافة. قال: لم أساهم في السلطة وجدت نفسي في راحة مِن دونها. وشرق الحديث بيني وبينه، فسألته: إن قضية كركوك أراها معضلة فكيف ستُحل؟ قال: إنها عراق مصغر، وأرى حلها في إقليم قائم بذاتها، يعيش فيه الجميع، غير هذا أراه صعباً.

في حوالي الساعة العاشرة والنصف مساءً نهض رئيس الوزراء قائلاً لي: سأتركك بأيد أمينة كي تتم مهمتك بين قرى أهل الحقه، وأنت بأمانة الصديق شالاو عسكري. شالاو مِن سُكان قرية سركلو، واصطحبني في سيارته مِن سد دوكان إلى مكان الاحتفال، وقضى الطريق يحدثني عن تاريخ مذهبه (الحقه)، كان يحمل معه عكازة، فرجله مصابة في الحروب السَّابقة، يضع إلى جانبه رشاشا ومسدسا، أبعدهما بين الحين والآخر عن أرجلي. قلت له: هل أنت بحاجة لهما؟! قال: كلُّ شيء آمن لكن نحسب حساب المفاجأة، أو ربَّما للتعود، فنحن لأعوام طويلة لا نحمل سوى هذه، وأشار إلى سلاحه. خيرني الدكتور برهم إذا ما أحببت أن أبيت بالسليمانية بفندق، وعند الصَّباح يؤتى بيَّ إلى مناطق بير مقرن أو قرى سورداش، حيث مضارب أهل الحه قه.

فضلت المبيت مع شالاو عسكري، كي اقتصد بالوقت، فصار الاتفاق اللقاء الساعة العاشرة صباحاً مِن اليوم التالي بأحد مؤرخي المذهب، وهو مِن المثقفين والكُتاب، وهو مصطفى عسكري عم شالاو، الذي كتب كتاباً عن ابن منطقته رئيس وزراء العراق السابق جعفر العسكري (قُتل ١٩٣٦)، ودوره في الدَّولة العراقية، وكتاب عن الحقه. قال لي شالاو: سيعجبك بيتي كثيراً، فهو مشيد مِن الخشب على سفح الجبل، وسترى آثار الثُّلوج ما زالت موجودة.

غادرنا سه ركه لو منتصف الليل، وكنت قد التقيت بعطا المفتي في تلك الليلة، وهو يعمل في جريدة الشَّرق الأوسط بلندن، وكانت مفاجأة لي وله، وما كنت أعلم أن عطى أفضل مِن يجيد الغناء الصُّوفي. كان أغلب الحضور يتحدثون العربية، وإذا غلبت الروم وجرى الحديث بالكردية قام الشَّاب الإعلامي مدير القناة العراقية آلان عبد الله عبد الرَّحمن بمهمة التَّرجمة، وكان أحد أصدقاء الفيسبوك، وكم مِن الصِّلات والفوائد التي جنيتها مِن موقع التواصل الاجتماعي.

في ديار الحه قه

انطلقنا أنا وشولاو عسكري إلى قريته، في طريق مظلم تماماً، كان قبل عشرين عاماً أو أقل، المرور فيه يُعد مخاطرة في أجواء النَّهار فكيف في منتصف الليل. كان البيت يشبه الأكواخ الأوروبية العريقة، التي تراها مِن نوافذ القطار المار بين لندن واسكتلنده، أو بين برلين وكولون بألمانيا. كان الجبل يحيط به، ومِن حوله تنبع عيون ماء تنتهي إلى الوادي لتشكل جدولاً يجري بين الصخور، بعد أن يأخذ فلاح الدار حاجته منه لسقي حقول الخضرة الصغيرة. تحيط بالدار أشجار موردة، فقيل لي إنها أشجار الجوز، واضح أنها واعدة بحمل ثقيل، وأشجار برية يُجمع منها الحطب.

قلت لشولاو، وهو مسؤول في حزب الاتحاد الكردستاني ومقاتل سابق، كيف تفعل في الشِّتاء مع الثُّلوج؟! قال كلُّ شيء يتحول إلى بياض، وربَّما عكفت بالدار لثلاثة أو أربعة أيام لا أستطيع الخروج، حتى تأتي سيارات لقشط الثلوج من على الطَّريق. قلت: أما تشعر بوحشة المكان؟! قال: تعلمت على ذلك، وشيدت هذه الدَّار لهذا الغرض. وهي ليست عُزلة مثلما تظن، إنما العيش في رحم الطبيعة. أترى كم هو نقي الهواء وكم الأجواء هادئة.

نمت تلك الليلة ملأ جفوني نوماً عميقاً، فكان السَّفر طويلاً، ثم النُّزول إلى الوادي والصعود مرة أخرى، وكنت بين الحين والآخر أنظر إلى شالاو كيف سينقل خطوته فوق الصخور وعبور ممرات الماء بساقه المعاقة، فلما شاهدني متحيراً بالقفز مِن على الجدول الصغير، أعارني عكازته فاتكأت عليها وعبرت، أما هو فقفز مِن دونها، فالمكان مكانه، وقضى فيه طفولته ثم حرب العصابات، فلا يعصي عليه عبور ترعة ماء أو عائق صخري.

إنها مشاهد فقدناها مِن زمن طويل، يبزغ الفجر على صوت الديكة، وحركة النَّاس باتجاه الحقل والعناية بالأشجار، وصوت الماء لا يتوقف، فالدار كانت مرتفعة عن الأرض، وكأنها معلقة على الوادي. قال شالاو: أنا ذاهب لأنام، متى ما احتجت إلى شيء أطرق عليَّ الباب! بزغ الفجر فخرجت إلى الممر المطل على الجبل أنظر إلى المدى البعيد، وتلك القمم التي صارت لعقود مِن الزَّمان ساحات للمعارك الضَّارية.

كم قضى فيها مقاتلون وجنود معاً! كيف لو شيدت وعُمرت بدل الخراب الذي عمَّ فيها، وانقطعت عن سبل الحضارة والمدنية. مناطق تتوهم في طبيعتها بين لون الزُّهرة ولون الطَّير، تتذكر في الآيات الصَّريحة في الاستحالة، مثل قوله: "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ" (البقرة: ٧٤).

يتفجر الماء من الحجارة، مِن دون أن ترى سيلاً أو نهراً، حجارة صلدة تنفط ماءً، لا يتوقف. ماذا لو رأى السائح، الذي تشغله بيروت أو تونس بسحرها، شلال بيخال، أو علي كلي بك؟! هل تعجبه أرضاً أخرى! لا أظن ذلك. أرض تطاوع أشجارها الطبيعية خصبة مروية مِن الجبل والمطر.

عندما تطل على وديان سه ركه لو وبه ركه لو، يأخذك الذهول من حدة التَّضاريس وارتفاع قمة الجبل هوة قعر الوادي السحيقة. ترى كهوفاً على شكل غرفة محفورة، اتخذها المقاتلون مقرات ومنازل

إنها مشاهد فقدناها مِن زمن طويل، يبزغ الفجر على صوت الديكة، وحركة النَّاس باتجاه الحقل والعناية بالأشجار، وصوت الماء لا يتوقف، فالدار كانت مرتفعة عن الأرض، وكأنها معلقة على الوادي

أقول هذا: كي يأخذ السياسيون صراعاتهم بلين وسهولة، فالزَّمن طال في الخلافات، وأرى الأرض ستتكلس على نفسها والماء ينفر منها، فهي لا تتحمل حربا أخرى. أشار لي رئيس الوزراء برهم صالح ونحن نتقدم نحو سد دوكان، ذي الطبيعة الخلابة بجمالها وصفاء هوائها، إلى مئات القرى التي أُعيد إعمارها بعد أن أزالتها الحروب والعصبية مِن على وجه الأرض، والمشاريع مستمرة لتحويلها إلى أماكن سُكنى حضارية، وما تتطلبه من خدمات وتعليم وألعاب طفولة. لكن تلك الجهود بحاجة إلى اطمئنان على الحال السياسية، على مستوى العراق كافة. ربَّما في أمنيتي طوبابوية أن تصير قرى الإقليم مصايف لأهل العراق كافة وقرى جنوبهم مشات، وأن لا يحصر الأمر بأهل النفوذ والمال.

صباحاً وصل الأستاذ مصطفى عسكري، اليساري القديم والسجين في سجن نقرة السلمان، وهو أريحي الطبع فصيح باللسان العربي، أقول كان مِن أهل اليسار، وأقصد في الفكر والسياسة لا المال، ووصلت معه عائلة تتكون حداد وزوجته مِن الديانة البهائية، يقيمان بالسليمانية، وهما مِن بعقوبة، ولكن لظروف طارئة بعدا عَن مكامن الخطر.

سألتهما متى أصبحتما بهائييْن؟ قالا، أجدادنا على هذا الدين، ونحن على خطاهم سرنا. أضافا لي معلومات جديدة، واستعرت منهما كتاب "أقدس" كتاب الدِّيانة البهائية، مع الشُّروح، مع أني استنسخته مِن المكتبة البريطانية منذ سنوات، ونَشرته ملحقاً بكتابي "حروف حي". ربَّما المرة الثانية ألتقي بأشخاص بهائيين عراقيين وجهاً لوجه، ويطول الحديث معهما في أمر هذا الدِّين، الذي يحترم الأديان والمعتقدات كافة.

قال لي حداد لما سألته عن مقام بهاء الله بجبل قرية سه ركه لو: نعم هذا موجود في كتبنا، وأن هناك معلومة تؤكد وجود قبر لخادمه علي الهمداني على طريق قلعة دزه، في كآن هه لوّ بنجويني، وهي ليست بعيدة عن مكان اعتكاف بهاء الله لسنتين. إن قصة البهائية بدأت مع ظهور الباب الشيرازي، وكان هو باب المهدي المنتظر، والأخير بشر به، وهو بشر ببهاء الله فكان الدين البهائي، هذا باختصار شديد.

استأذنت من حداد وزوجته كي استغل الفرصة وأنجز ما قدمت مِن أجله، وهو البحث في الحقه، فانطلق مؤرخها مصطفى عسكري، وهو يُعد مِن أسرة شيوخ فيها، يحدثني بتفاصيل دقيقة، وبين الحين والآخر، عندما يشعر بعدم إلحاقي به لتدوين ما يسرد عليَّ يقول لي: إن هذا موجود في الكتاب الذي لديك، ويقصد الذي من تأليفه وباللغة العربية.

لا أسهب هنا في الحديث عن هذا المذهب، فهو معد لكتابي "الأديان والمذاهب بالعراق" بطبيعته الجديدة (ثلاثة أجزاء)، لكن باختصار وجدته مذهباً يجاري الجديد في الحياة، ويعطي المرأة حقها غير منقوص، بما فيه الإرث، ويعمل على المساواة بين أهل المذهب، وهو بالأصل صوفي نقشبندي، ولم يخرجوا عن مبادئ النقشبندية إلى تطوير الحياة ومجاراة التقدم. ويُعد الشَّيخ عبد الكريم شه ذله في العشرينيات، والذي توفي سنة ١٩٤٢ هو المؤسس بعد الشيخ أحمد السردار.

بعد حلول العصر، قلت لمضيفي شالاو، وقد خيرني بين البقاء أو الذهاب إلى أربيل، قلت أريد العودة إلى أربيل، لكن قبل ذلك لو تمكنت مِن زيارة أضرحة الحقه وتكاياهم! فقال: إنها على الطريق، وسيصحبك مَن يطوف بك عليها ثم يوصلك إلى أربيل. كان الجو غائماً مشمساً مع نزول رذاذ المطر، يسمح بظهور قوس قُزح بين الحين والآخر، هناك مَن يسميه بقوس الله، وهناك مَن يسميه الشَّيطان، وربَّما لألوانه وانجذاب النَّاس لسحر ألوانه، لذا اعتاضوا عن الاسم بقوس مطر، وليس للشَّيطان صلة بهذا القوس، إنما هي عملية فيزياوية تحصل عند تقاطع أشعة الشمس مع قطرات المطر فتبرز تلك الألوان السَّاحرة. لكن كالعادة كلُّ شيء جميل نُسب للشَّيطان، وعلى الخصوص الأفراح والمسرات منها، بما فيها الموسيقى.

بسركه لو ضريح الشيخ أحمد السَّردار، وبقرية شه ده له ضريح الشيخ عبد الكريم شه ده له، ولهم خانقاه بكركوك. مررنا على الضريحين، ثم توجهنا إلى قرية كللكه سماق هقه، وهناك تكية ومقبرة لأصحاب أو مذهب (الحه قه) اتخذت مِن سفح الجبل مكاناً، وفيها قبور عدد مِن المشايخ، قبر شيخ مام رضا (ت ١٩٦١)، وولده شيخ كاكه حمه (ت ١٩٩٧)، ثم الشيخ الحالي وهو وله هاوري كاكه حمه. قال الشيخ هاوري، الذي فهمت أنه كان ضمن البيشمركه، لا بد مِن البقاء للعشاء، لكن بعد إلحاح احتسينا الشَّاي وخرجنا. كان ولده الشَّاب سرور يحرص على ذكر سلسة المشايخ حتى وصولها إلى والده هاوري.

كان الشيخ مام رضا أحد الموقعين على بيان السِّلم العالمي، جنباً إلى جنب مع الشيخ الحلي عبد الكريم الماشطة (ت ١٩٥٩)، والشَّاعر محمد مهدي الجواهري. قيل إن الشيخ ماما رضا اقترب مِن ثورة ١٤ تموز، وكان مِن أنصار السَّلام، بعد أن كان معتقلاً سنة ١٩٤٤ في معتقل العمارة (ميسان) جنوب العراق، وبهذا لنا اعتباره شبيهاً بالشيخ الماشطة في قربهما، أو عدم عدائهما للحزب الشيوعي العراقي، على أساس أنه كان الداعم الأول لأنصار السَّلام، التي دخل فيها سادة وشيوخ معممون من النَّجف، إضافة إلى شيوخ دين مِن أهل السُّنَّة مثل عبد الجبار الأعظمي (قُتل ١٩٧١).

اعتاد أهل الحه قه القول عند المصافحة "يا كريم يا رضا" مِن دون هز اليد، فهناك مَن يفسرها بالشيخ رضا، ومَن يفسرها بالله، وهذا ما يبنونه جماعة الحه قه. حرموا زواج الشِّغار، أي مبادلة زواج امرأة مقابل امرأة أخرى، ويسمى بجنوب العراق (كصة بكصة)، وربما دفع إلى هذا النوع مِن الزَّواج الفقر، أي عدم التمكن مِن المهر، وهناك مساوئ عديدة لهذا الزَّواج، وهو عرف عشائري لا ديني، منه أن العلاقة بين إحدى الزيجتين تنعكس على الأخرى بشكل مباشر. بشكل عام يميل أهل الحه قه للسلم، ويعتبرون الطقوس الدينية قضية شخصية ليس هناك مِن وصي عليها.